

أصداء الذاكرة وديناميتها في رواية
"بين السماء والأرض" لديهيّة لويّز

Echoes of memory and its dynamism in the novel "Between heaven and earth" (Gar igenni d tmurt) by Dihya Lwiz

عزيز نعمان¹

Aziz NAMANE

جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)

aziz.namane@ummtto.dz

-تاريخ النشر: 2025/10/19

-تاريخ القبول: 2024/09/18

-تاريخ الاستلام: 2024/04/29

ملخص:

يسعى هذا المقال للبحث في أصداء الذاكرة وتجلياتها الأدبية في رواية "بين السماء والأرض" (Gar igenni d tmurt) للأديبة الراحلة ديهية لويّز، وإظهار دور الرسائل واليوميات والسيرة الذاتية في تشكيل خطاب الرواية، ونسج مختلف موضوعاتها المرتبطة بالتاريخ الثوري وأحداث الربيع الأمازيغي (لسنتي 1980 و 2001) والوضع الأنثوي، وتمثّل وعي الكاتبة وتصورها في رحاب مدونة روائية أمازيغية الرسم، جزائرية الفكر والروح، متعددة الأصوات ومتصدعة الذاكرة.

كلمات مفتاحية: ذاكرة، وعي، كتابة، أصداء، رسائل، يوميات، سيرة ذاتية.

Abstract

This article seeks to explore the echoes of memory and its literary manifestations in the novel of "Gar Igenni D tmurt", "Between heaven and earth" by the writer Dyhia Luiz. It shows the role of letters, diaries, and biography in shaping the novel discourse and weaving its various topics related to the revolutionary history and the events of the Amazigh Spring (1980 and 2001) and the feminine situation. It represents the writer awareness and its perception in the field of fiction writing, amazigh graphic, of algerian thought and soul, polyphonic and memory fragmentation.

Keywords: memory ; writing ; consciousness ; echoes ; epistolary ; diaries ; biography.

المؤلف المرسل: عزيز نعمان، الإيميل: namane.aziz@gmail.com

Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.

This is an open access article under the CC BY license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

مقدمة:

تعدّ رواية "بين السماء والأرض" (Gar igenni d tmurt) -2016- آخر أعمال الأديبة الراحلة ديمية لويز، وقد أظهرت فيها الكاتبة قدرة كبيرة على ممارسة الإبداع الأدبي بلغة أخرى، ليست سوى لغتها الأم، مع ما شهدته رواياتها المكتوبتان بالعربية ("جسد يسكنني" -2012- و"سأقذف نفسي أمامك" -2014-) من اهتمام الدارسين والأكاديميين، وما لقيتا من أصداء في الأوساط الصحفية. وجاء تصميم الرواية قائما على تمازج الرسائل والمذكرات والسيرة الذاتية، وتنوّعت الموضوعات لتشمل التاريخ الثوري الجزائري، وأحداث الربيع الأمازيغي (لسنتي 1980 و2001) والوضع الأنثوي في جوانب عدّة منه.

يلاحظ قيام فعل السرد في الرواية وارتكاز بنائها الحكائي على الذاكرة التي تتوزّع شظايا وتتوالى ارتداداتها عبر مختلف الأحداث وعديد المشاهد، راسمة لنفسها طريقا برزخيا تنفلت منه وإليه جزئيات من تاريخ أرواح الكاتبة عاطفة وتأثيثا لما ظل فارغا مُفرّغا من وقائع ماضٍ يتراوح مجاله نسبيا بين البعد والقرب، ثورة التحرير المنقضية البعيدة الخالدة وثورة الهوية والحقوق القريبة الدائمة، سيرة حياة شخصٍ شكلت أطوارها تجارب تلهم الخيال وتضع بها الأدبية أسس عملٍ أدبي تتواصل فيه الأشياء والأحداث، وفق تصور أمبرتو إيكو (Umberto Eco)، بفضل وظيفة الذاكرة الواصلة، الفردية والجماعية، التاريخية أو الأسطورية (Eco, 1996 : 141)، ما يمنح الرواية تميزها ويفتح خطاباتٍها على التأويل المتعدد، ويستوجب من القراء الحفر في المرجعيات واستجلاء المضمرات.

تثير الذاكرة الحاضرة بقوة في رواية "بين السماء والأرض" جملة من التساؤلات، لعل أبرزها مقترن بكيفية اشتغال هذا المعطى الإنساني الحيوي في عمل ديمية لويز، ومظاهر طفوه وبروزه بين الأحداث والشخص، ومدى إسهامه في معرفة ما مثل ويمثل هاجسا لدى المبدعة الجزائرية الشابة، ويترجم- من ثم- بعض مشاغل الشباب الجزائري وتطلعاته في العقد الثاني من الألفية الثالثة؟ تُسعفنا المقاربة التحليلية المستثمرة لمفاهيم الذاكرة والكتابة والوعي، لدى ذوي الاختصاص، في قراءة مركبةٍ لدونة مقالنا هذا. ولعل البحث في الذاكرة ومظهرها الدينامي يفيد، من بين ما يفيد، في معرفة كيف يستقي الأدب مادة إبداعه من ماضي الجماعة والفرد معا، ويستمد شكله وجنسه الهجينين، الذي تتحاور/ تتصادم فيه مختلف خطابات الحياة، على أساس الجدال الدائم القائم بين الشكل والمعنى والعبارة والمحتوى، عبر ملكة/ ميزة إنتاج الأفكار وقوليتها فنيا، التي حُصّ بها بشرٌ عن آخرين، وارتقى بها بعضٌ على بعضٍ فكريا وجماليا.

كما تفيد دراسة الذاكرة وكتابتها والوعي بها، في الكشف عن آليات البوح الجمالية التي تتوسلها المرأة المبدعة، باعتبار أدبها قائما في جوهره على التلميح والاعتراف من روافد الماضي الدفين المكبوت، وباعتباره مسلكا من مسالك استرداد حق التفكير والتعبير الحرّين، وإشباع مطلب الوجود الطبيعي والتمتع بالحركة بين فضاءات الحياة الرحبة الفسيحة، التي سُخّرت للجنسين سويا وبإنصاف، ماضيا وحاضرا ومستقبلا..

2. ذاكرة وترسل:

من الآليات التي اعتمدتها الكاتبة في تنشيط الذاكرة وجعلها وسيطا بين أحداث الرواية وسير شخصيتها، الرسائل التي تُشكل عمود الرواية الفقري، بها كان المستهل والنهاية، بل هي التي تُغذي الحدث العام للحكاية الذي ينطلق من رسالة تلقّتها "ديمية" من "يوبا آث علي" يناشدها فيها بالحاح أن تتكفل بإخراج "مذكرات" جدّته "زهرة" المتوفاة منذ وقت قريب، وقد عثر عليها ضمن ما تركته في صناديقها بين صفحات الكتب الكثيرة والثياب العتيقة. يشبه ذلك الإرث المميّز بالكثرة الذي قد يُلهمها أدبا، فيقول مُبرّرا سبب وقوع اختياره عليها:

"قد تقولين لم يكتب إليّ ويُحدّثني عن قصة جدّته، وأنا لا أعرفه ولا أعرف جدته؟ لا تيأسي، ستستجليين الأمر حينما أبعث إليك في الرسائل المقبلة الكنز الذي وجدته، الكنز الذي تركته جدّتي زهرة. سيعجبك ذلك كثيرا، لأنك في ميدان الكتابة والأدب قد تُعيرين ذلك اهتماما. من يدري" (Lwiz, 2017: 07).

تكتسي الرسائل أهمية خاصة في الرواية من منطلق ارتباطها باسترجاع يوميات ومذكرات امرأة حفلت حياتها بالأحداث والتجارب إلى أن شاخت، والشيخوخة- كما تؤكد سيمون دي بوفوار (Simone De Beauvoir) في كتابها "الشيخوخة" (La vieillesse)- ليست حدثا بيولوجيا فحسب بل إنها أيضا حدث ثقافي" (De Beauvoir, 1970: 26)، ويتجلى الطابع الثقافي لذلك المعطى الوجودي في تدوين الجدة "زهرة" فصولا من حياتها وحياة المجتمع الذي انتمت إليه، وسعيها الحثيث للإبقاء عليها حية، ودفعها بين الكتب إشارة منها لوريثها "يوبا" بتمتع أشياءها تلك بالحياة التي تتمتع بها تلك المخلوقات الورقية. ويتجلى الطابع الثقافي أيضا في عزم ذلك الحفيد على جمع ما تركته جدّته من نصوص، وتمحيصها وترجمة ما يتسم منها بالعمق من الفرنسية إلى الأمازيغية، فالواجب يدعوه إلى أن يُخلّد ذاكرة جدته، ويهبها بالأدب جمالية تنضاف إلى ما حملته من أحداث تروي أيام العباد والبلاد.

تتيح الرسائل لـ "ديهية" و"يوبا" التواصل غير المباشر، وتتحول بعد أن يتبين غرضها إلى أدب يصل شخصيتين تشير أحداث الرواية إلى أنهما تنتميان إلى قرية واحدة هي "إغيل أومسد" (Iyil Umsed)، وأنهما مهتمتان بالإبداع، لا سيما "ديهية" التي أكسبها أدبها شهرة معتبرة، و"يوبا" الذي آمن برسالة الأدب في الإبقاء على ذكرى الجدة، أو كما قال لـ "ديهية"، "كي تظل إلى الأبد أثرا لما عاشته" (Lwiz, 2017: 13). والرسائل من منطلق عام واستنادا إلى ما يقوله الدارسون هو "الأدب الشخصي" أو «أدب الحياة» (الغامدي، 2013: 171)، الذي ينبض في رواية "بين السماء والأرض" بالعواطف وأشياء الحياة التي استوحتها ديهية لويز من ذاتها وسيرة حياتها، وأبرز ما يؤكد ذلك توظيف اسمها المستعار في العمل، كما استلهمتها من قريبها "إغيل أومسد" التي أثرت أن تُبقي على اسمها كما هو من باب العرفان وتعميق الذكرى.

وتتدعم الرسائل، كما أسلفنا القول، بالمذكرات التي يغلب فيها الفعل الأدبي والفكري على الفعل التوثيقي، فُسجل تأملات الكاتبة حول الأدب والتاريخ والثقافة والسياسة، وقد توزعت قضايا الحياة تلك على شخصيات الرواية، وتداخلت عبر نسيج أحداثها، فتكتب "زهرة" في أوراقها عن حياتها، متحدثة عن زواجها في سن الخامسة عشر من شخص- "أرزقي"- لم تكن تعرفه، بإرغام من خالها وأُمها، لتجد نفسها وحيدة ومُجبرة على الاشتغال خادمة لدى عائلة ضابط في الدرك بمدينة "الجزائر"، ما يزيد معاناة ابنها "إيدير" لها بعدما تخلى عنها قبلا، فيتجنّد في صفوف الدرك من باب الانتقام ليصبّ غضبه لاحقا على أبناء المنطقة في نضالاتهم ومسيراتهم من أجل الهوية، وهو ما يكون سببا في حسرة الأم، التي تتعرض للإقصاء بعد عودتها إلى قريبها "إغيل أومسد".

وتكتب "زهرة" أيضا عن "سامية"، وهي ابنة مستخدمها، التي علّمتها القراءة والكتابة، وأسهمت في نضج وعيها، كما تستذكر بحنين وجراحة قصتها الحميمية مع الممرضة الفرنسية "ماري" (Marie) التي سهرت على مداواتها في مستشفى بجاية، وهي في سن الخامسة عشر، ليفارق بينهما القدر منذ خروجها من المستشفى. وتستذكر "ديهية" من جهتها فصولا كثيرة من حياة البطلة الشهيذة "فاظمة إبلعيدن"، التي أعدها الاستعمار في سنة 1959 رميا من على متن طائرة مروحية، وتجد الرواية في أوراق "زهرة" كلاما كثيرا عن تلك الشهيذة، يروي صداقتهما، ويسترجع مشهد الموت الفظيع.

لم تكن العودة إلى هذه الوقائع الشخصية الحميمية المرتبطة بنساء نائبات عودته توثيقية تسجيلية، إنما استندت فيها الكاتبة إلى الذكرى التي لا تُرجع ولا تُسترجع، على حد قول بول ريكور (Paul Ricoeur)، "إلا بطريقة الصيرورة- الصورة" (ريكور، 2009: 35)، وهو ما أنتج مادة أدبية لامست صورها وعلاماتها تصدّعات ذاكرة نسوية أريد لها نور المركز بدل الهامش الذي طال سجنه وأمدّه على المرأة، ويتوافق هذا المسعى مع ما قالته الأدبية وهي تجيب عن سؤال وُجّه إليها بخصوص اعتمادها في رواياتها على تقنية الاستدكار: "ربما لأنني أتصور الحياة هكذا، عبارة عن رجوع مستمر إلى الوراء لنتمكن من الاستمرار والمضي قدما. الذاكرة تُشكّل تاريخ الإنسان وتُعطي

معنى لوجوده في الحاضر" (تاجا، 2017: 04). وهذه الدينامية الحاصلة بين الأمس واليوم عبر جسور الذاكرة هي التي تُرجمت حدثاً وبناءً في رواية "بين الأرض والسماء".

يروى "يوباً" بدوره، في آخر رسائله إلى "ديمية"، وقائع تاريخ قريب من نسبيا، مرتبط بأحداث ماي 1981 ببجاية، التي تُشكّل أول ارتداد للربيع الأمازيغي لسنة 1980، يليه في بداية الألفية الثالثة- بعد عشرين سنة (في 2001)- الربيع الأسود الذي يشارك "يوباً" في أحداثه رفقة الكثيرين، ويتعرض للاعتقال والإهانة والتهديد بعد اغتصاب أحد رجال الأمن (دركي) له. وتندرج هذه الأحداث ضمن ذاكرة تداخل فيها الواقع السياسي ومطلب الحريات، وتراكمت فيها مشاهد المندادة بحياة أفضل وراهن تتصالح فيه أطراف المجتمع، ويتحاور الحاكم والمحكوم، ولقد ترجمها الواقع ولا يزال يترجمها في عديد بلدان العالم إلى المعارضة السلمية البناءة التي يرى بيير بورديو (Pierre Bourdieu) أنها "تستوجب اشتغالا على الذات، يكون جماعيا دائما، قصد تحويل الاستعدادات حتى تعتقد وتفكر وتتصرف إلخ..، هذا الجهد الذي قد يبدو طويلا ومعقدا" (شوفالبيه، شوفيري، 2013: 191)، وتتكفل الذاكرة باحتواء الطول واستيعاب المعقد، فتختزلهما الرواية وتصبهما أدبا يهذب الخيال ويكيّفه مع معطيات زمن أدركت "ديمية لوزير" أنه عصر الثورات التي لا تنضج إلا في رحاب ذاكرة دينامية.

يشدّنا في هذا المضمّار ما ورد في مؤخرة الرسالة، حيث أطلع "يوباً"- الذي بدا أكثر بوحا- "ديمية" على اعتزامه الهجرة، في اليوم الموالي، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هروبا من ماضيه الأليم ونسيانا لما قاساه يوم اعتقاله، فيبادر بتوجيه اللوم إلى ذاته مقدار توجيه التهمة إلى من أضّر بكرامته، لكنه يُبدي استعدادا للنسيان والخروج قويا مما انحفر في ذاكرة الجسد:

"قد يكون ما رويتُه إلهاء للنفس. ففي الواقع، أنا أيضا خجل، لأنني قلت لك هذا، فكأنني طرف في المحنة والمحن التي لازمت هذا البلد. من يدري، علّك ستجترئين شيئا من كل ما حكيتك لك. لست أدري، لأنني لا أعرفك" (Lwiz, 2017: 110).

بقدر ما يتحصن البشر بالذاكرة ويلوذون إليها ليحتموا بها ضد صروف الدهر، بقدر ما تأسّروهم وتخزن الآلامهم ومحنهم، فهي- في حالة "يوباً"- ذاكرة جريحة، تستدعي بإلحاح مشاهد الإساءة التي لحقت بالذات في كيانها وكرامتها، ولكنها تقترن بخطاب نقد تلك الذات وإشراكها في مبادرة إعادة إصلاح ذات البين. وقابلية مراجعة الذات التي تضمّنها المقطع السابق مؤشر يدل على نهج الحوار الذي أرادته الكاتبة ديمية لوزير في مسار مطالبة شخوصها بحقوقها المشروعة، لا سيما تلك التي تصب في مصب الهوية الوطنية، فالذاكرة (ت) الجريحة تستدعي ذاكرة (ت) أخرى فكرية حوارية سلمية، هي ما يوحد ويجمع، ويسهم في إرساء معالم مرجعية وطنية تلجأ إليها مختلف الحساسيات والأطراف وتحتكم وتطمئن في كنفها.

يوحي المقطع السابق أيضا إلى الصراع الذي سيظل قائما بين أطراف المجتمع، وإلى جدلية المطالب الثقافية الاجتماعية مع الصراع الذي يعد قوام الحقيقة وأداته، ذلك أن وجود الحقيقة- كما يقول بورديو- وجود منوائ يستدعي الصراع ويقتضيه (Bourdieu, 2002: 94)، وتتكفل الذاكرة التاريخية باحتواء كل أشكال الصراع الناشبة في سبيل الحقيقة، فيتأسس الوعي بكليهما، وهو ما مثلته رواية "بين السماء والأرض"، عبر استرجاع أحداث تاريخية، محفورة في الذاكرة الجماعية، تترجم عمق المطالب الشعبية وهاجس الهوية والأصالة والانتماء.

ألّبت الأدبية أحداث روايتها وشخصوها أقنعة تاريخية مرتبطة بمراحل مفصلية من تاريخ الجزائر المعاصر، ولقد نسبت فيها فعل الحكّي إلى ساردة كاتبة، جمعتها بشخصيتي البطل وجدّته علاقة قراءة، وأداة الجميع في ذلك رسائل بعث بها إليها "يوباً"، الذي لم يكن يعرفها إلا كقارئ لإبداعاتها بالعربية، فيرهن مصبرها (الرسائل والذاكرة الممثلة فيها) بمشيتها هي، وبحرية التصرف فيها إما اهتماما أو تجاهلا (Lwiz, 2017: 110). وهو ما يوجهنا إلى فكرة التزام الأدبية، التي أكلت إليها مهمة صيانة الذاكرة بفعل الكتابة، ولعل الإشارة إلى امتهان الساردة الكتابة بالعربية وتكليفها بمسؤولية كتابة الذاكرة من بين ما يحيلنا إلى سيرة "ديمية لوزير" الذاتية (اسمها الحقيقي لوزية أوزلاق)، التي أبدعت بالعربية روايتين حظيتا بحوث ودراسات كثيرة، وتلك إشارة أخرى إلى قدرة الأدبية، بل أحقيتها،

باعتبارها حافظة الذاكرة الجماعية والفردية، على الانتقال السلس بين اللغات، وتضميد جراح الذاكرة، وتمثيل/ تجاوز المحنة والأزمة فكريا وجماليا.

إن من بين ما ينضاف إلى خصوصية المرأة الكاتبة، قدرتها على استرجاع الذاكرة، في مظهرها الحركي، احتضانها وقراءتها، وأداتها في ذلك الكلمة التي ترى "دهية لويز" أنها "بالنسبة إليها متعة قبل كل شيء، تسافر عبرها إلى كل المتاهات الممكنة في النفس البشرية، وتكتشف نفسها والآخرين أكثر من خلالها" (مفتي، 2023)، فتلتحم الكتابة بالذاكرة على سبيل تركيب مضامينها وتفكيك أقنعتها ورموزها، تجديدا لعهدا بهويتها وانتمائها، وتأسيسا لوعي جماعي قوي الصلة بالماضي، وانخراط وثيق في الحاضر والمستقبل. ولقد كانت الرسائل المتمتزة باليوميات والسيرة الذاتية قالباً شكلياً مميزاً زاد دينامية الذاكرة تمظهرها، وهو ما كان عاملاً في توزيع خطاب الرواية إلى شظايا تستقي مادتها، وصورها ومشاهدها بين حدود الزمان وأقاليم المكان.

3. عوالق الذاكرة ومرتكزات الكتابة:

تلتقي مذكرات "زهرة" و"دهية" في استعراض طريقة اغتيال الشهيدة "فاظمة إبلعيدن"، ووصف بشاعة المشهد، وقد صنعت الكاتبة منه عنوان روايتها، متخذة من صورة المرأة المت موضوعة بين السماء والأرض رمزا يحيل إلى عوالق الذاكرة ومعلقاتها، راسمة خطا فاصلا بين ما يتجه من تلك الشظايا إلى الأرض فيندثر، وما يتجه منها نحو السماء فيخلد ويسمو. وجاء تفصيل الحدث في مذكرة "دهية" التي استوحت ما فيها من شهادات نساء قريتها، فتقول:

"لما أبى فمها أن يفتح ليفشي سرّ الثورة، راح العدو يرفعها سماء في طائرة مروحية ويرميها من هناك حتى التقت مع الأرض، بمنطقة لعزيب الشيخ، في شهر أكتوبر 1959" (Lwiz, 2017: 53).

أما "زهرة" فقد كتبت عن مشهد الاغتيال حسبما عاشته ووصلها إلى بيتها غداة وقوعه، دون أن تتمكن من رؤية صديقتها آخر مرة، ما زاد ذكرها حضوراً في نفسها، جاعلة شهر أكتوبر، أفضل شهور السنة عندها، رمزا خلودها. كتبت تقول:

"كلما دخل هذا الشهر تعود ذكرى فاظمة. كم من سنة مرت اليوم عن وفاتها، ثماني عشرة سنة تحديداً! ماتت بين السماء والأرض. بلغت روحها بارئها حينما رماها الفرنسيون من على متن طائرة مروحية بلعزيب. لما التقى جسدها بالأرض تقطع إزبا" (Lwiz, 2017: 67).

يركّز المقطعان على التظام جسد الشهيدة بالأرض، والتحامه بها عائداً إليها مثل أول نشأة، أما عن وضعه في السماء فترهنه "دهية" بما اختاره المستعمر مصيراً للمناضلة، يشترك فيه الكثير ممن طالهم وحشية المحتل، وفي ذلك تنديد به وفضح لأساليبه. بينما تقرن "زهرة" وضعية الجسد العالق بسمو الروح وبلوغها درجة الانحلال مع ذوات أخرى طيبة المقام، والمقصود هاهنا الشرف الذي يناله الشهيد في ذاكرة الوطن والإنسانية، وهو ما يهب الخلود عبر الذاكرة، فكما يذهب أمبرتو إيكو "يمدّد هذا التشابك الواقع بين الذاكرات الفردية والجماعية حياتنا، ذلك أننا نعكس وعدا بالخلود وإن كان ذلك بالمقلوب" (Eco, 1996 : 141)، ويعني القلب هاهنا الخلود الروحي المعنوي الذي ينتظر كل نفس أبية نقشت بصماتها على ذاكرة البشرية، واتجهت في منحنى وجودها إلى أن تظل حاضرة رغم غيابها، على حد قول مولود معمري.

ما يفتح مجال تأويل عنوان الرواية على مصراعيه، تلك القصيدة الحرة الصغيرة التي نشرتها "دهية لويز" على صفحتها في الفايسبوك (Page de Dihya Lwiz, 2017) في 15 مارس 2017، حيث عمدت إلى استتباع بعض ثنائيات الحياة المتضادة، ووصلها (أو فصلها) بعلاقات بينية، زادت النص حمولات دلالية وعلاقة بالوجود والوجود، ما من شأنه أن يوجّه تأويلنا للرواية في خطاها الجامع. لا بأس من إيراد تلك الأبيات خدمة لموضوع مقالنا هذا:

Ger itij d usigna

بين الشمس والسحاب

Ger lqerh d lferh

بين الفرح والترح

Ger igenni d lqaæa

بين السماء والأرض

Tudert ziy dayen ieelqen ger sin !!

الحياة إذن هي ما علق بين اثنين!!

تتموقع حياة البشر بين أشياء المتضادة، فهي منزلة متراوحة بين النور والدفء والظلام والبرد، وبين السعادة والطمأنينة والسكينة والشقاء والقلق والاضطراب، وبين السمو والعز والسقوط والذل، وللبشر علاقة في قلب موازين هذه العناصر، وتغير منحاهما، إما إيجاباً أو سلباً، فكلما نازعت الإنسان نفسه وذاتيته إلا واختار أقرب طريق إلى السقوط والفناء الرمزي، وكلما اتبع صوت الإنسانية والتعارف إلا واتجه بخطى واثقة نحو الرقي بجنسه وتحسين شرطه الإنساني. وبين حلاوة الحياة ومرارتها، تظل الذاكرة تُسجل وتنتقي للإنسان ما يصلح لحياته ويقيمها حية عزيزة، ويتخذ الأديب لنفسه موقعا في هذا العمل الإنساني الصرف، فتكون كتابته وشخصه، كما تقول جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) في كتابها "الزمن الحساس" (Le temps sensible)، "الموجهة لتشديد بنيان عمله، في علاقة اتصال متجددة مع عمق الذاكرة التاريخية" (Kristeva, 1994: 178)، ووحده العمق يرسم للإنسان آفاق إنسانيته، ويقربها من منظور الأدب والفن والفلسفة وكل ما يُعنى بكليات الوجود وغائياته.

تجد كتابة "ديهيية لوزير" مرتكزا في عوالم الذاكرة، وتعير صوتها وقلمها لبطلتي روايتها "ديهيية" و"زهرة"، وبدرجة أكبر لـ "ديهيية" المتعلمة والمتحضرة، لتُخرج من النسيان ما تصدّع من وبذاكرة الماضي، وتتمثل في ذلك بأخر كلمات "يوباً" في رسالته الأخيرة: "الآن، آل أمر كل شيء إليك، فافعلي ما بدا لك" (Lwiz, 2017: 110). فتغدو المسألة إذن مسألة حياة الهوية الثقافية أو موتها، ولأن المؤتمر عليها امرأة فإنها "تستشعر علاقة الكتابة بالهوية بوصفها ضرورة" (Didier, 1999: 34)، وتستلزم ضرورة حاجة جميع أطراف معادلة تخيل الذاكرة إلى أن تتداعى أفكارهم وأن "يذهبوا إلى أبعد ما يمكن، فينومينولوجيا الذكرى، التي هي اللحظة الموضوعانية للذاكرة" (ريكور، 2009: 32)، ويقوم مسعى ريكور الأخير هذا في رواية "بين السماء والأرض" على تبادل وتبدل أدوار شخصيات الرواية، لتمنح "ديهيية لوزير" شخصيتها النسوية "ديهيية" التي تقمصت اسمها-رخصة تأجيل المرور من سؤال الفعل "ماذا؟" إلى سؤال الفاعل "من؟"، حرصا على تعميم نسبة الفعل إلى الجنسين لا إلى واحد دون الآخر، بنية النسيان، الذي رأت فيه الكاتبة داءً خبيثاً (Lwiz, 2017: 64) يفصل المجتمع عن ذاكرته وتاريخه، ويُضلل حاضره ومستقبله، ويؤسس لقطيعة بين مختلف أجياله غير محمودة العواقب، تهدد أبنيتها الثقافية وقنوات تواصله الإنساني.

خاتمة:

إن قراءة رواية "بين السماء والأرض"، التي صدرت سنة وفاة كاتبها ديهيية لوزير، رحمها الله، قد أتاح لنا تبين المكان الذي تحتله الذاكرة بين أحداثها ومشاهدها، فهي بمثابة الحلقة الواصلة/ الفاصلة بين الزمن والسرد، والملجأ الذي تسلك الشخص مسلكه لبلوغ حقيقة الأمس واليوم في آن. وهذا الدور المرجعي الذي اضطلع به هذا العمل الأخير يجعل منه بامتياز كتاب الذاكرة، والوعي بالتاريخ والراهن، والتأسيس لهوية الجماعة التي تتحدد في رحاب التعددية والاختلاف.

تجلت أصداء الذاكرة، بمظهرها الفردي والجماعي، في الرواية بعمق، فمنها ما اندرج في خانة الثورة التحريرية الجزائرية، ومنها ما ارتبط بنضال الهوية والانتماء، ومنها ما اقترن بالشرط النسوي، وقد سخرت الكاتبة الرسائل والمذكرات والسيرة الذاتية لمنح تلك الأصداء أبعادا جمالية، ثقافية واجتماعية تفيض إنسانية ونقاء.

إن التشظي والهجنة الأجناسية والحركية التي بدت عليها النصوص وتبنتها الكاتبة قالباً لتمثيل الذاكرة، تناسب الدلالة الجوهرية للذاكرة عينا، باعتبارها مفهوما ديناميا شائكا يقتزن بالتاريخ والثقافة والوعي والإدراك والعاطفة، فثمة تأرجح مستمر بين الماضي والحاضر، بين الفردي والجماعي، بين الشفهي والمكتوب، بين القديم والجديد، والأهم من هذا كله أن قطيعة الذاكرة المعانيمة بين شخوص الرواية وأحداثها قطيعة أرادت منها الأدبية قطيعة مع الماضي المسمى إلى الفرد والجماعة والوطن، لا قطيعة الذات والجماعة والأجيال، ذلك أن الذاكرة الجديدة قد تقوم على أنقاض أخرى سبقتها، فترممها وتجعلها موضع تحيين وممارسة ودينامية.

ليس غريباً أن تتبنى "ديهية لويـز" الذاكرة، في نهاية العقد الثاني من الألفية الثالثة، موضوعاً لرواية آلفتها بالأمازيغية، إشارة منها لما تتمتع به هذه اللغة من مخيال واسع رحب على كافة أصعدة الفكر والحياة، شأنها شأن لغات العالم كلها، ففي زمن طبعت حروب الذاكرة وأزمائها حاضر الإنسانية، وأحرق بها النسيان من كل صوب، لم تجد المبدعة بداً من ولوج المتاهات الممكنة في الطبيعة البشرية، قصد استكشاف ذاكرة بلدها وشعبها التي يظل أمر بقائها وصمودها، وسط ذاكرات البلدان والشعوب الأخرى، مرهوناً بما يُمنح لها من مواقع عناية واهتمام في الخارطة الثقافية الوطنية.

ملحق:

آخر قصيدة نشرتها الأديبة الراحلة ديهية لويـز- رحمها الله- على صفحتها في الفايسبوك بتاريخ 27 جوان 2017، ثلاثة أيام قبل وفاتها:

Ziy mazal ur nebdi	لم نبدأ بعد
Abrid yer tmusni	طريق المعرفة
Abrid yer tlelli	طريق الحرية
Deg wiyaḍ mi ara nettwali	حينما نرى الغير
Amek akken yeshel kulci	كيف هو كل شيء لديهم سهل
Yur-ney amzun d awezyi	كأن الأمر لدينا مستحيل
Ur nezri acimi	لا نعرف السبب
Nugi ad neffey seg idelli	نأبى الخروج من الماضي
Teejba-y tnumi	أعجبنا العادة
Teejba-y truži	أعجبنا تكسير
N wayen leali	ما هو جميل
Ieejba-y leewej dg-i nettili	أعجبنا ما نحن فيه من اعوجاج
Nugad an beddel	نخشى أن نتغير
Akken ahat fella-y ad tbeddel !!	علنا نتغير !!

6. قائمة المراجع:

- الغامدي، صالح معيض. 2013. *كتابة الذات. دراسات في السيرة الذاتية*. ط1. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي. 286ص.
- تاجا، وحيد. 2017. "الرواية الجزائرية ديهية لويـز لـ «أشـرعة»: الكتابة بالنسبة للمرأة تحد لذاتها أولاً ثم للآخرين". جريدة "أشـرعة". مسقط: مطابع الوطن. 26 فيفري 2017. ص4.
- ريكور، بول. 2009. *الذاكرة، التاريخ، النسيان*. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي. ط1. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة. 760ص.
- شوفالييه، ستيفان، شوفيري، كريستيان. 2013. *معجم بورديو*. ترجمة الزهرة إبراهيم. ط1. الجزائر، دمشق: دار الجزائر، الشركة الجزائرية السورية للنشر. 314ص.
- مفتي، بشير. 2013. "روايات جزائريات ينحزن إلى الكتابة أولاً... والأثنى ثانياً"/الشابكة/، <<https://langue-arabe.fr/>>، تاريخ الإنزال: 16 أكتوبر 2013، تاريخ التصفح: 28 أبريل 2024.
- BOURDIEU Pierre, (2002), Questions de sociologie, Paris, Éditions de Minuit. 277p.

- DE BEAUVOIR Simone, (1970), La vieillesse¹, Paris, Éditions Gallimard. 441p.
- DIDIER Béatrice, (1999 [1981]), L'Écriture- femme, Paris, PUF, 3^{ème} édition. 288p.
- ECO Umberto, (1996), Six promenades dans les bois du roman et d'ailleurs, traduit par Myriem Bouzaher, Paris, Éditions Grasset et Fasquelle. 155p.
- KRISTEVA Julia, (1994), Le temps sensible, Paris, Éditions Gallimard. 455p.
- LWIZ Dihya, (2017), Gar igenni d tmurt, Tizi- Ouzou (Algérie), Éditions Frantz Fanon, 2^{ème} édition. 117p.
- Page de Dihya Lwiz, (2017), <<https://www.facebook.com/dihya.lwiz>>, Publié le 15 mars 2017, Consulté le 29 mars 2018.

السيرة ذاتية للمؤلف :

أستاذ التعليم العالي بجامعة مولود معمري، تيزي وزو، عضو في مخبر "تحليل الخطاب"، ورئيس فرقة "ترجمة الخطابات الأدبية النقدية" التابعة للمخبر ذاته، عضو في مشاريع بحثية في إطار الـ (pnr)، (cnepru) و (prfu). أشرف على العديد من مذكرات الليسانس والماستر، ورسائل الدكتوراه، وشارك في عدد من لجان المناقشات الأكاديمية (ماستر، دكتوراه، تأهيل جامعي) بصفته رئيساً أو ممتحناً. وهو خبير في مجلتي "الخطاب" (التابعة لمخبر تحليل الخطاب) و"اللغة العربية" (التابعة للمجلس الأعلى للغة العربية). ولقد كان عضواً في اللجان العلمية الخاصة بالملتقيات الدولية الوطنية، كما شارك في عدد منها في موضوعات مرتبطة بالأدب والدراسات الأدبية. صدر له كتاب "جدل الحداثة وما بعد الحداثة في نص «سيمرغ» لمحمد ديب" (2012)، وكتاب "دروس في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية" (2024)، ومجموعة من المقالات العلمية في عدد من المجلات الوطنية. وأسهم في عدد من المؤلفات الجماعية: "آسيا جبار بين إكراهات الكتابة بلغة الآخر وسلطان الذاكرة والتاريخ" (2015)، "الرواية الجزائرية والسينما" (2015)، "مسارات في تأويل الخطاب الروائي الجزائري" (2019)، "مولود معمري الهوية المتعددة: روائي، كاتب مسرحي، أنثروبولوجي، لساني" (2022). كما شارك في ترجمة جماعية لكتاب "النقد الأدبي وعلم الجمال. الأسس الجمالية لنظريات الأدب"، لبيير ف. زيمّا (2022).